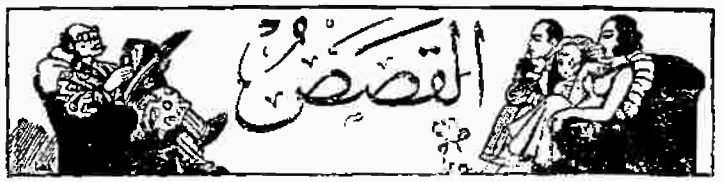

غلطـــة

للكاتب الفرنسي موريس ليفل

يا دكتور : أريد أن تفحصني وتخبرني هل أنا مريض بالسل ؟ أريد أن أعرف الحقيقة؛ وإن لي من الشجاعة ما يساعدني على سماع أسوأ الأخبار . ثم إني أعتبر من واجبك أن تكلمني بصراحة ، ومن حقي أن أعرف حقيقة أمري ... أتعدني بذلك ؟

تردد الطبيب هنيهة ، ثم اضطجع في كرسيه وقال : أعدك بذلك ... اخلع ملابسك ...

وبينما كان المريض يخلع ملابسه ، كان الطبيب يسأله :

— أتشعر بضعف ؟ أتعرق أثناء الليل ؟ ... هل تسعل كثيراً ... ولا سيما في الصباح الباكر ؟ ... ألا يزال والداك على قيد الحياة ؟ ... أتعرف المرض الذي ماتا به ؟ ...

قال الرجل وقد عرّى صدره : ها نذا يا دكتور ...

وأخذ الطبيب يفحص المريض بدقة، والمريض يتتبع الفحص في صمت واهتمام . وبعد بضع دقائق وضع الطبيب يده على كتف المريض قائلاً وهو يبتسم :

— ارتد ملابسك ... إنك عصبي جداً . ليس بك شيء . لا شيء مطلقاً ... يخيل إلي أنك لست مسروراً بسماع ذلك ! ...

فأمسك الرجل قليلاً عن ارتداء ملابسه وفي عينيه نظرة حادة ، وأجاب بصوت فيه سخرية وتهكم :

— أوه ... نعم ... إني مسرور وسعيد ...

وارتدى باقي ملابسه في سكون تام . وكان الطبيب جالساً إلى مكتبه يحرّر « التذكرة » فاستوقفه بإشارة ثم قال : « لا فائدة ... » . وأخرج من جيبه عشرين فرنكا وضعها على المكتب وجلس ، ثم قال بصوت متهدج فيه رجفة خفيفة :

— لنتحادث قليلاً يا سيدي ... منذ ثمانية عشر شهراً ، جاءك مريض يسألك كما سألتك أنا من بضع دقائق أن تصارحه بالحقيقة . فحصته سريعاً ... هذا صحيح ... ثم أخبرته أنه مسلول وأن حالته خطرة ... أوه . لا تحتج ، لا تدافع عن نفسك . أنا واثق من كل ما أقول ... قلت له لا يجوز أن يتزوج ، وبعبارة أخرى لا يجب أن يعقب نسلاً

فدمدم الطبيب قائلاً : لا أتذكر ، ومع ذلك فهذا جائز ... إن كثيراً من المرضى يزورني كل يوم ... ولكني لا أفهم ماذا تريد أن تصل إليه ...

— أريد أن أصل إلى هذا : لقد كنت أنا ذاك المريض . ولقد كذبت عليك حين قلت لك وقتئذ إني أعزب . كنت متزوجاً وأباً لأولاد ... وبعد أن أقفلت الباب وراءي لم أخطر لك على بال طبعاً ... لأني واحد من أولئك المخلوقين البائسين الذين يزورون عيادتك كل يوم ... أما أنا فقد كان لوصفك مرضي على هذا النحو أسوأ النتائج ...

وأمرّ يده على عينيه ثم واصل حديثه :

عند ما عدت إلى البيت كانت زوجتي وأولادي الصغار في انتظاري . كان الفصل شتاء ، ولكن البيت كان يستمتع بالدفء والراحة والسرور . وكنت إلى ذلك اليوم مشغوفاً بساعة العودة ... والبقاء مع صغاري الأعزاء. كنت أحب قبلات زوجتي ومداعبات أطفالي ... وفي أثناء النهار كنت أتوق إلى تلك اللحظة التي أصير فيها حراً لأنسى بين هؤلاء الأعزاء متاعب العمل والحياة . ولكنني في تلك الليلة عند ما قدّمتْ إليّ زوجتي شفتيها ، تراجعت ... وأبعدت أطفالي الصغار حين أقبلوا إليّ ، لأن البذرة التي بذرتها يا دكتور في نفسي بدأت تنمو !

جلسنا إلى العشاء ، فكنت أحاول أن أخفي همي ، ولكني كنت مكتئباً حزيناً ، كسير القلب ، أفكر في هذه الكائنات المحبوبة التي سأفارقها قريباً ، في أسرتي التي ستفقد عائلها ، في أولادي الذين سيكبرون أيتاماً

إن لغيرى ممن يعرفون أن موتهم قريب تعزية ، وهى أنهم قادرون على أن يضموا إلى صدورهم من يحبون ويملؤوا عيونهم منهم ، ولكنى أنا ... ! أنا الخطر الداهم لكل من يقترب منى ، أنا من يحمل الموت معه ... لا أزال حياً ، وقد انفصلت عن الأحياء ، ولم يعد لى حق فى مسرات الحياة !

... وعندما حان موعد النوم ، التف أولادى حولى كما يفعلون كل ليلة ، ولكنى دفعتهم عنى لأن فى الوبوء لا ينبغى أن يمس أفواههم !

أويت إلى فراشى ثم أخذ كل شىء يسكن فى المنزل ، وفى الطريق ، فأشعلت النور ، وبقيت ساهداً بالقرب من زوجتى وهى تنسم أنفاسها الهادئة

أخذت ساعات الأرق الطويلة تمر متثاقلة . كنت أضغط صدرى بيدى ، وكأنى أريد أن أصل بأصابعى إلى موضع الداء فى رئتى . لم يكن بى من الألم فى الحقيقة ما يجعلنى أصدّق حكمك ، فإن مثل هذه الأعراض تنتاب كثيراً من الناس !... وانتهيت إلى الاعتقاد بأنك لا بد أن تكون مخطئاً . قلت فى نفسى : لا ، لست مريضاً بالسل ، مستحيل ، سوف أستشير طبيباً آخر ...

غير أنى سمعت فجأة سعالاً فى الغرفة المجاورة ... فعرتنى قشعريرة . عاد السعال الآتى من غرفة أولادى ثانياً ، جافاً ، وحاداً ومنتهياً بنوع من الحشرجة . مددت يدى نحو زوجتى ولكن خفت أن أوقظها فسحبت يدى . وعاد السعال مرة أخرى ، فقمت بهدوء وذهبت إلى الغرفة التى ينام فيها أطفالى . وفى ضوء القنديل الضئيل ، أمكننى أن أراهم وهم نائمون فى فراشهم . خيل إلى أن أكبرهم محمر الوجه . جسست يده فإذا بها دافئة ، ملت عليه . سعل عدة مرات متوالية وهو يتقلب فى فراشه بضجر . مكثت إلى جانبه وقتاً طويلاً كان يسعل خلاله باستمرار ... وعدت إلى غرفتى ، ولكنى ما كدت أتعدد على فراشى حتى استولت علىّ فكرة مرعبة : هو مسلول مثلى ، لا شك فى ذلك

فى تلك اللحظة كنت أنت تنام ملء جفونك يا دكتور ، أليس كذلك ؟

واليوم التالى كان فظيعاً . لم أجرؤ على إخبار زوجتى أن طفلنا مريض . لم تكن عندى الشجاعة الكافية لإحضار طبيب . كنت خجلاً من نفسى ، وعقد الجبن لسانى فسكت

لكن عقلى لم يسكن . استمرت الأفكار السود تحركه . ليست المسألة مسألة العدوى فقط ، بل هناك شبح أبشع من ذلك ظلّ ماثلاً أمامى : الوراثة . لقد ورث أطفالى مرضى كما ورثوا عينىّ وشعرى . وحتى لو كانوا قد نجوا من حكم هذا القانون المخيف فقربى المستمر منهم لا بد أن يكون قد نقل العدوى إليهم

تقول إن ذلك وهم وخيال ؟ كلا ، أليس ذلك نتيجة طبيعية للمجهود الذى تبذله أنت وزملاؤك بالمحاضرات والمجلات والجرائد لتكشفوا للناس أسرار هذا المرض !

كل ما كنت قد قرأت أو سمعت تجمع فى رأسى

زوجتى وأطفالى أعز الناس علىّ ، سوف يذبلون واحداً بعد آخر ! سوف يقاسون حياة مريرة معذبة فى انتظار النهاية المؤلمة ... وأنا ، سوف أشهد ذلك كله فى وجوههن الشاحبة ، وأجسامهن المتداعية . والعلم عاجز عن تغيير هذا القضاء المحتوم

وسكت لحظة ثم عاد يقول فى صوت عميق :

ثم ـ تابعنى جيداً ـ بعد مرور أيام لم تبرحنى خلالها لحظة تلك الأفكار الواخزة ، تولد عندى الاعتقاد بأن هناك حالات يكون فيها من واجب الإنسان أن يقف عذاباً يعلم أن لا مفر منه ... من حقه أن يمحو جريمته ، يفنى ما خلق ، يكون هو يد القضاء التى تنقذ من الشقوة من لا ذنب لهم

أنت ترتجف ؟ أنت خائف من أن تفهم ؟ .. نعم ، بيدى قتلت أطفالى وزوجتى ! أسمعت ؟ ... قتلتهم ، سممتهم ، وفعلت ذلك بمهارة لم يفطن إليها أحد

كنت فى أول الأمر مصمماً على أن أضع حداً لحياتى أنا أيضاً ؛ ولكنى كنت فى نظر نفسى خليقاً بالعقاب ! لا لأنى قتلتهم — إذ أعتقد أن عملى فى هذه الحالة مشروع — بل لأنى أوجدتهم . وأى تكفير أحكم به على نفسى أشد من البقاء منفرداً يائساً أتحمل وحدى عبء تلك الحياة المنكودة التى أنقذتهم منها ؟!

والآن ، انظر ماذا حدث . بعد موتهم بأسابيع ، أخذت تعود إلىّ قواى . ذهب الألم الذى كنت أشعر به . لم يعد أثر

للدم فى بصاق . بدأت أشعر بشهية للأكل ... بل بدأت أسمن!

اعتقدت فى أول الأمر أنه لسبب ما وقف المرض مؤقتاً ، وسوف يعود بحالة أشد . إلا أنى بعد بضعة أشهر تبينت الحقيقة المرّة ، وهى أنى شفيت . أقول شفيت ! ... ولكن ، هل كنت حقًّا مريضاً بالسل ! . . وتجسّمت الفكرة أمام عينىّ . أتفهم ماذا أعنى؟ ... إذا كنت مسلولاً حقا ، فقد كان واجباً ما فعلت . أما إذا لم أكن ، فقد قتلت بلا مبرر ، وقتلت من ؟ ... زوجتى وأولادى ...

أمهلت نفسى سنة كى أتأكد ، مؤملاً دائماً أن المرض الذى وقف سوف يعود ، بل محاولاً بكل وسيلة أن أعيده إلى الظهور ... ولكن عبثاً ، إذ لم يظهر أى عرض من أعراض المرض. وعندئذ وثقت بأنك كنت مخطئاً ، بل مرتكباً لأفظع خطأ . استولى علىّ اكتئاب لا قبل لى بدفعه ، عيناى اللتان اختزنتا الدموع طويلاً عجزتا عن إبقائها . لقد هدمت حياتى بيدى ، قتلت نفوساً بريئة ، ألقيت بنفسى فى خضم من الأحزان والآلام . ولم كل هذا ... ؟ لسبب خطئك أنت . ولقد أتيت اليوم هنا لأعلمك أنت بنفسك تقر بغلطتك ...

وانتصب الرجل واقفاً وهو يقول وقد ضم ذراعيه إلى صدره:

— لقد اعترفت أنت بنفسك أن لا أثر للمرض بى . إنك لم ترعينىّ وأنت تقول : أنت عصبى ، ولكن ليس بك شىء ، لا شىء مطلقاً ، أؤكد لك ! . نعم ، لأنك لو كنت رأيتهما لارتجفت من الخوف ، لفررت فيهما أنى جئت . . .

فقاطعه الطبيب مغمغما وهو فى منتهى الشحوب :

— أنا لست معصوماً ... إن فكرة السل متغلغلة فى الأفكار هذه الأيام . . . وكثيراً ما يتأثر الإنسان دون شعور منه به . . . من الجائز جداً أن يعطى الطبيب أثناء فحصه أهمية لصوت قد يكون عرضياً ومؤقتاً ... قد أكون أخطأت ... أعظم الأطباء كثيراً ما يخطئون فى تشخيص المرض ... ومع ذلك فلكى تتأكد دعنى أفحصك ثانية

فانفجر الرجل يضحك ضحكة وحشية مرعبة وقال :

— تريد أن تفحصنى ثانية ! ... ها ها ... أتظننى أبله ؟ ليس بى شىء . لقد قلت ذلك منذ هنيهة : « لا شىء مطلقاً ! » وأنا فى هذه المرة واثق من صحة تشخيصك

غلطتك جعلتنى قاتلاً، فأنت شريكى . شريك عن غير قصد، أنا معك . . . ولكنك كنت العقل المدبّر وأنا اليد المنفذة . وما دامت العدالة واحدة وأبدية ، فأنا ـ العصبى ـ أتهمك وأحكم عليك وأنفذ الحكم . . . عليك أولاً . . . ثم على نفسى

. . . ودوت طلقتان فى الفضاء . واندفع الخادم إلى الغرفة فوجد جثتين مجندلتين ؛ وقد سال دم الدكتور على (تذكرته) ولم يكتب فيها بعد سوى :

بروميد ١٥ جراما

ماء مقطر . . .

صنوع العربه فاضل

كراسى أحد غالبى الملاريا M. Arab. 146

٤ أيار سنة ١٩٢٥

فيرميشينو القرية الصغيرة قرب روما فى حزن كبير . فى حين أن الحياة تظهر فى كل مكان مع مجيء الربيع فان هذه القرية تحرمها الأسف لموت شيخ خصص السنوات السبع الأخيرة من حياته المملوءة عملا كى يضمن رفاهيتها وهذا العالم اسمه جيوفانى بانسنا كراسى فمن ١٩١٨ إلى ١٩٢٥ توصل إلى تقليل عدد إصابات الملاريا من ٥٨ فى المائة إلى ٢ فى المائة .

لقد كان كراسى أحد مشاهير الأطباء الذين تستطيع إيطاليا أن تفتخر بهم فقد كرس نفسه على الأخص لدرس مقاومة الملاريا فالفضل يرجع إلى رونالد روس وإليه فى اكتشاف أن عدوى هذا المرض تنتقل بواسطة البعوض من نوع أنوفيل. لكن هذا غير كاف فالى جانب أعمال كراسى اللامعة لا يمكننا اغفال ذكر عمل لجنة الملاريا لجمعية الأمم التى تصف الكينا كدواء فعال وهو فى نفس الوقت واق وشاف ضد هذا المرض كما أنه لا ضرر منه فحسب رأى هذه اللجنة يجب أخذ ٤٠٠ ملليجرام من الكينا يوميا طول مدة موسم الحميات لتجنب العدوى ويكفى جرام واحد أو جرام وثلاثون سنتجرام كل يوم مدة خمسة أو سبعة أيام لشفاء شخص مصاب ولا لزوم لمعالجة تكميلية وفى حالة الافتكاس يطبقون الطريقة نفسها وهى ناجعة .